

# نحو مقارنة سوسولوجية للمجال

عبد المنعم الشقيري  
باحث - وزارة التربية الوطنية

”على العموم المنزل هو الذي يخلق الساكنة، إذ بإمكان موضوع جامد يتسم بالحياة أن يهب ميلاد الحياة“ جوته Goethe.

لعله من ناقل القول أن المجال مكان تحقق المجتمع، ومرتع تطور الواقع الاجتماعي سواء في ارتباطه بمنطق الحراك الاجتماعي أو بالتبادلات الاقتصادية. إنه يشكل حيز شبكات التواصل القادرة على ضمان حد أدنى لاستمرارية العلاقات الاجتماعية ودوامها. لذلك هناك علاقة بين المجال كأساس مادي من جهة، وإطار وحجم للنشاط الاجتماعي من جهة أخرى.

لقد اعتبر الباحثان الاجتماعيان موليز A.Moles وفيشر Ficher المجال كتمثل يحمل دلالة لدى الإنسان، إنه غير موجود إلا لمن يشغله. وعليه هناك فرق بين المجال Espace والمكان Lieu، إذ بخلاف المكان يتفرد المجال بهوية وتديير إنسي عبر تمثلات الأفراد، فهو إسقاط لتمثلاتهم وتصوراتهم تجاه دواتهم وتجاه الآخرين.

في هذا السياق اعتبر ادوارد هال Edward Hall في كتابه "البعد الخفي" أن هناك أربعة أنماط مجالية داخل كل ثقافة تترجم بالمسافة المحيية والمسافة الشخصية والمسافة الاجتماعية، وأخيرا المسافة العمومية، تتغير كل واحدة حسب الأشخاص والمجتمعات والأمكنة.

يظهر مفهوم القرب كيف ينظم المجال داخل المجتمعات الإنسانية حسب العوامل الثقافية، وذلك بتمكيننا من فهم كيفية تملكنا للمجال وكيف يحرضنا ويدفعنا للانتظام بطريقة ما انطلاقا من التمثلات والقواعد والمعايير التي نملكها.

إن اشكالتنا هي كالتالي هل التمثلات والأفكار هي التي تهيكل المجال أم على العكس المجال هو الذي ينظم ويحدد ويهيكل الأفكار والتمثلات والسلوكيات؟  
إجابة على هذا الإشكال نستحضر ثقل الأطروحة الأنثروبولوجية حيث يصبح المجال موضوعا ثقافيا بامتياز. إذ لا يمكن فهمه واستيعابه إلا من زاوية فهم روح الثقافة التي تصدر عنه وتؤطره، فسلوك من وجهة نظر ثقافة ما، قد يأخذ معنى جد مغاير حينما نرصده من وجهة نظر سياق ثقافة أخرى. فلكل مجتمع لغته وثقافته الخاصة بالمجال ؛ نستحضر مقارنة الأنثروبولوجي ادوارد هال Edward Hall للمجال، فهو يرى أن الطريقة التي من خلالها يستعمل الإنسان المجال جزء من الأبعاد المجسدة اللاشعورية "الخفية" لتجربتنا، فالهدف الذي يطرحه هال من خلال مقارنته هذه تمكين الناس من الوعي بهذا البعد الخفي كي لا يستلبوا ويتمكنوا من التحكم في مجالاتهم. على هذا الأساس يصبح المجال منتوجا ثقافيا.

ينطلق هال من كون الإنسان حبيس كيانه السيولوجي كما هو حال الحيوان، فالبنيات الخفية لتجربتنا ترجع مسبقا إلى البنيات المادية لمحياتنا؛ حيث يتعلم الأفراد منذ الصغر دون أن يدركوا الإقصاء أو الضبط مع الانتباه أو الحذر إلى أنماط العناصر المختلفة لتنظيم المجال وإدراكه، إنهم يتعلمون كيف يستعملون حواسا دون أخرى، كما يتعلمون تنظيم المجال الذي يعيشون فيه والذي تفرضه عليهم ثقافتهم الأصلية؛ ففي كتابه "ما وراء الثقافة" تحدث هال عن تجربة سفره إلى اليابان، حيث تسبب تغيير غرفته داخل الفندق أثناء غيابه، ونقل متاعه دون علمه في انزعاجه كثيرا، لذلك حاول تفهم هذا السلوك في إطار سياق الثقافة اليابانية. فأن تنقل شخصا أو ترحله من مجال (غرفة إلى أخرى دون علمه يمثل

أكبر إهانة في الثقافة الأمريكية)<sup>(1)</sup> لذلك يعتبر نقل شخص من مكان إلى آخر دون إرادته هو مس بشخصه“ فنقل موظف من مكتب واسع إلى مكتب ضيق يعتبر تنحية وحطاً من مكانته“<sup>(2)</sup> فلماذا يعتبر هذا السلوك أمراً طبيعياً مقبولاً داخل الثقافة اليابانية؟ لذلك راح هال يبحث عن تفسير لهذا السلوك داخل الثقافة اليابانية ليعثر على مفهوم “الانتماء” الذي يشكل لوحده مسألة الهوية، فبمجرد وصول السائح إلى الفندق وملئ ورقة البيانات الشخصية لدى إدارة الفندق، فإنه لن يصبح من الغرباء أثناء فترة إقامته؛ سيصبح منتبهاً إلى عائلة كبيرة، يتضح ذلك من خلال طريقة تدبير عمال الفندق للغرف التي ينزل بها الزوار باعتبارهم جزءاً من عائلة كبيرة. ولذلك فالترحال أو التنقل المتتالي هو برهان ملموس على أنهم أصبحوا يعاملون الشخص وإن كان من جنسية أخرى على أنه عضو جديد داخل العائلة اليابانية بعيداً عن أي تصور قديمي، أو مسألة إهانة أو حط من قيمته أو بنقله من غرفة إلى أخرى دون علمه أو رغبته.

هكذا يترجم تدبير المجال العلاقة الجديدة التي بموجها سيصبح مجالاً واحداً يتقاسمه كل أعضاء العائلة كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم، إذ لا فرق بين ما هو عام وما هو خاص؛ فجوهر الثقافة اليابانية هو تفضيلها للجانب الدافئ الحميمي للحياة، كما أن احتياج اليابانيين لعلاقات عميقة وقوية تجعل من تقاليدهم ذات خصوصية مثل النوم جنباً إلى جنب، إنها ثقافة تتسم بالروح الجماعية وغياب الفردانية، فالانتماء هو الذي يحدد هوية الياباني حينما يدخل في شراكة مع الآخرين حيث يصبح جزءاً من الجماعة.

انطلاقاً من هذه المعطيات الثقافية نجد تماثلات اليابانيين للمجال أنهم غير مبالين ببعده المادي، لذلك تراهم يستعملون فقط جدران الورق، بل إنهم ليسوا في حاجة إلى الجدران الإسمنتي السميك، والأبواب المزدوجة كما هو حال الأمريكيين.

هكذا فتمثل الياباني للمجال في كونه غير محايد هو ترجمة للعلاقات الحميمية وللانتماء للجماعة إذ تزول كل الحواجز والعوائق بين أفرادها.

1. Hall Edward, Au delà de la culture, P. 64 .

2. Hall Edward, Au delà de la culture, P. 67 .

في المقابل يتصور الأمريكيون تجربة المجال كأمر محايد ، أي لا يشير ولا يحيل إلى علاقة أو انتماء، فالاختلاط يربع الأمريكي ”بل إنه يخجل حينما يوجد في علاقة مادية حسية مع شخص غير حميمي“<sup>(3)</sup>. من هذا المنطلق يرى هال أن الأمريكي يفضل ويميل إلى تحقيق أهدافه المحددة على أن يطور علاقاته مع الآخرين، إنها ثقافة الفردانية؛ هنا تبرز أهمية الإسقاط كمفهوم يطبع علاقة الانسان بالمجال عبر أنسنة هذا الأخير، فلا يوجد على حد تعبير هال كائن عضوي بإمكانه الحياة دون تغيير وتطوير مجاله. فتحويل الوسط والتأثير عليه يتكون من خلال عمليتين متكاملتين وهي الاستخراج والاستدماج. فأشكال المراقبة داخل المجتمعات في فترة من تاريخ أوروبا الشمالية خصوصا المراقبة المبنية الداخلية الخاصة بالنساء من حيث البنيات الاجتماعية قد تجسدت في الأشخاص (نساء - رجال) أما من حيث البنيات المادية فنجدها قد تمثلت في الأبواب والأقفال والجدران والنوافذ باعتبارها إسقاطات مادية لأخلاق وقيم معينة، إننا بصدد شكل من أشكال تدبير المجال ضمن وعي وتمثلات ثقافية وأخلاقية تقوم بأنسنته وجعله يكتسي طابع المحضور والمباح والممكن والمستحيل. إننا أمام أطروحة تولي أهمية للشأن الثقافي في هيكله المجال.

في المقابل هناك من يعتبر أن المجال هو الذي يهيكل الأفكار والتصورات والتمثلات في هذا السياق. يقول جيلبير ديرون G.Durant : الأرض هي الأم الملجأ الحاضنة إنها تعطي تناسقا في كل أنوثتها مما يجعلها تعطي اتساقا لمختلف، الوضعيات الفردية والاجتماعية<sup>(4)</sup>، بل أكثر من ذلك لم تستطع عمليات التحديث القضاء نهائيا على التجمعات والروابط التقليدية كما هو حال الهند مثلا وقد يرجع ذلك بالأساس إلى استمرار سيطرة الذاكرة المجالية *mémoire spatiale*، وكأن المجال خزان التقاليد والأفكار والتمثلات بهيكلتها والإحتفاظ بها، لذلك فالذاكرة المجالية هي بمثابة احتياطي يتعذر سير أغواره. بهذا المعنى يمكن الحديث عن الجسد المجتمعي الذي هو في حاجة إلى تربة لكي يتجدر، كما أن منزل الطفولة يظل أنموذجا لكل بحث عن الجذور، بل إن المجال المحلي هو الذي يهب الكائن صبغته الشمولية داخل الجماعة.

3. Hall Au delà de la Culture.

4. Mafesoli, La conquête du Présent, P. 60.

لعل السر وراء هذه الطاقة الاستيعابية والمهيمنة والمحددة للمجال تتمثل في كونه اعتراض على تدفق الزمان وما يحمله هذا الأخير من دلالات النسيان والتبدد والتلاشي. فالمجال هو زمان تم توقيفه، وهنا تكمن أهمية الطقوس اليومية؛ إذ ليس المنزل أو المحي أو المدينة سوى اعتراضات على الزمن المتدفق. إنها شعيرة للتواريخ الماضية للزمن، لذلك هناك ارتباط حميمي بين الفرد والمجال، بل إن المجال هو الشكل المسبق ليس فقط للتمثيلات والأفكار بل للإستيهامات "فالمخرافات والأساطير حسب ديرون Durant تستعيد انتعاشها من خلال مدى ارتباطها بالأمكنة والمواضع"<sup>(5)</sup>. لذلك فلا أفكار ولا تمثيلات بدون جدور ملموسة وحية .

في المقابل نستحضر الدراسة السوسولوجية لدنيال بنسون Daniel Pinson التي يعقد من خلالها مقارنة بين إدراك وتصور المجال في كل من الثقافة الفرنسية والثقافة المغربية. فإذا رجعنا إلى الثقافة المغربية سنجد أن هناك تعارضا كبيرا (فيما يخص المجال بين الداخل والذي يتسم بالحضور المكثف لناظم هندسي وانفتاح واسع على الحجرات الداخلية وديكورات جميلة حيث تأخذ أشعة الشمس مكانتها أيضا السطح الذي يشكل بدوره مجال الإسترخاء والإستمتاع من خلال انفتاحه على مشهد واسع، إلا أنه يظل محجوبا عن نظرة السطوح الأخرى المجاورة ، أيضا الساحة والفناء الذي يمثل ناظما هندسيا"<sup>(6)</sup>. في المقابل نجد الخارج الدرب جد ضيق، مظلم، أيضا الجدران المرتفعة والمنغلقة حيث لا تفتح هذه الدروب إلا في وجه ساكنتها.

هناك تعارض بين داخل مقدس جميل منظم بشكل هندسي، وخارج فوضوي عدائي مشيطن غير قابل للتنظيم، لا يؤشر على الاهتمام مثل الأهمية المعطاة للداخل، والخاصية المقدسة للأسرة. إن سر العالم وحقيقته ليست في مظاهر الأشياء بل في جوهرها، وعليه فالجمال مرتبط بقداسة المنزل في حين أن غيابه يترجم بالفوضى والذي يعبر عنه بالخارج.

5. Durant. Les structures anthropologiques de l'imaginaire, p. 65 .

6. Pinson D. Fès et Aix en Provence , P. 235 .

يتضمن هذا الوصف والتشخيص تصورات وتمثيلات للمجال، لعل أبرزها أن هناك فرق على "مستوى الإدراكي بين ما هو جوهري وأساسي من جهة يستحق الاعتناء والتنظيم والترتيب باعتباره امتدادا فيزيقيا وإسقاطا ماديا لما هو حميمي وقرابي، ذلك أن إكرام العائلة والإحتفاء بها يقتضي الاهتمام بالبيت مجال الاستقبال وغرف الاستقبال، فهناك أهمية مفرطة لغرفة الضيوف أكثر من اللازم، إنها مقدسة بحيث لا يمكن للأبناء أن يدخلوا إليها بله الاقتراب منها؛ لما تحمله من دلالات الهيبة والتوقير من جهة، ولكونها مرآة تكشف عن الوجه الداخلي للأسرة، مما يحيلنا إلى مسألة أخرى تخص المظهر أو الواجهة. فسر الاعتناء بالبيت أن يقدم صورة جميلة عن دواتنا أمام الآخرين، ليصبح المجال معيار لتقييم الأشخاص ومكانتهم داخل النسيج الاجتماعي .

في حين يشكل الخارج ما هو ثانوي كتعبير عن الغير الذي لا تربطنا به سوى انتمائه للمجال العام، بل أحيانا تترجم العلاقة إلى الحيطه والحذر، تتجسد في عدم مبادرة الأفراد للمساهمة في تدبير المجال الخارجي، لذلك تجد الشوارع غير نظيفة والأرقة غير معني بها، إنها لا تخصهم ولا تهمهم، اللهم المسجد باعتباره مجالا لالتقاء المؤمنين والذي يخضع لمعايير دينية محضة.

في المقال تخفي الثقافة الفرنسية تصورا معيناً للمجال بتركيزها على مفهوم "التصميم" و"الذي يعني التحكم في المجال من خلال قدرته على إيقاف الزمن واختزال المجال في صورة تصميم هندسي"<sup>(7)</sup> وعليه يعتبر المنظور Perspective بمثابة أداة توقيف الزمن وهيمنة على المجال، فداخل هذه الثقافة الغربية تعتبر العين وحدها التي تشتغل، فالمنظورية تسمح بإدراك كلي للموضوع دون لمسه، إنها تقنية إدراك الموضوع بدقة، لذلك يظل الجسد الغربي مجالا وموضوعا للتمثل لكنه يظل بعيدا عن حقل الإدراك اللمسي. يقول Pinson "تم إدماج، داخل الثقافة الغربية، ثقافة الرؤية Visuel عبر إقامة مسافة، إنها تشتغل انطلاقا من اليومي داخل الشوارع حيث الملصقات والشاخصات والصور، هناك كبث للمس، من هنا يصبح المجال عبارة عن توقف للإحتكاك، "فالجسد معزول" إنه يوضع في مشهد داخل مجال يصلح كإطار له<sup>(8)</sup> نعتز على الثماتيل داخل أوروبا في كل مكان، ومع ذلك هناك مسافة تمنعك من لمسها، إنها مجرد لوحات جعلت للمشاهدة.

.Pinson Fès et Aix, p. 237 .7

Pinson Fès et Aix, p. 241 .8

نصبح إذن أمام ثقافة النظر أو الرؤية عن بعد والتي تعني تملك الشيء الجميل، فالموضوع يوضع خارج إمكانية الإمساك به في الواجهة Vitrine، لذلك يحرم لمس الأشياء المعروضة داخل هذه المجالات.

هكذا تتم موقعة المجال كلوحة توضع في مسافة تستدعي خطوات إلى الوراء، بل إن آلية التصميم تسمح بتطويق المجال بجعله أكثر حيادا لا يحتمل اللمس بقدر ما يقوى على النظر، فكل شيء داخل المجال معرض لتقليب النظر والرؤية باستثناء لمسه أو الاحتكاك به فبقدر ما يبدو قريبا على مستوى النظر فهو بعيد عن متناول الأيدي.

هذا يؤدي بنا إلى الخلاصة التالية وهو أن تمثل المجال كونه ليس معطى بل هو بناء تتدخل فيه عوامل عدة أهمها الثقافة والفكر والوعي.

#### المراجع:

- Edward T Hall, Au delà de la culture, Editions du Seuil, 1979.  
Edward T Hall, La dimension cachée, Editions du Seuil, 1971.  
Michel MAFFESOLI, La conquête du présent, Editions PUF, 1979.  
Daniel Pinson, Espace public dans la ville méditerranéenne. Actes du colloque de Montpellier 14- 15-16 mars 1996, Editions de lesperou Montpellier, 1997 Vol1, p. 231-245.  
G Durand, Les structures anthropologiques de l'imaginaire, Bordas 1969.